ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية

مجلد: 10 عدد 1 جوان 2019

ص ص 379-404

التسامح الإسلامي المسيحي

التسامح الإسلامي المسيحي

من خلال مسيرة الأمير عبد القادر الجزائري 1832 ـ 1883م

محمد شـاطو

المركز الجامعي نور البشير بالبيض،

chatou31@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 26/ 12/ 2018 ؛ تاريخ القبول: 25/ 02/ 2019

The Islamic-christian tolérance througt : the career of the algerian hero Emir abdelkader

Abstract

Our rechearch is about the Islamic – christian tolerance, we are going to deal with its historical origins that show us the moral conducts and the ethical appreciation that the christians merited and deserved in the Islamic countries during the different centuries, In addition , we,ll talk about the legend of Emir Abdelkader and his gentil contact and his polite behavior with the French prisoners even if they were colonizers, without forgetting how he was dealing with christians in the levant (syria) during 1860. At the end we deduce that tolerance between christians and muslims is the

المؤلف المراسل: محمد شاطو
chatou31@yahoo.fr

way of productive colaboration and peace between the two wolds .

Keywords: The Islamic ; Christian ; Tolerance;Prisoners ; Emir Abdul Qâdir; Humanity.

الملخص:

يتناول بحثنا موضوع التسامح الإسلامي المسيحي الذي ونتطرق إلى جذوره التاريخية التي تظهر لنا الممارسات الراقية والمواقف المثالية التي حظي بها المسيحيون في البلاد الإسلامية عبر العصور المختلفة، لنعرّج بعد ذلك على مسيرة الأمير عبد القادر بنبل أخلاقه ومواقفه الإنسانية المميّزة مع الأسرى الفرنسيين لديه وهم ـ يومها ـ غزاة بلاده ، وكيف كان موقفه ـ الفريد في زمانه ـ من فتنة المسيحيين في منفاه ببلاد الشام سنة 1860. لنستنتج في الأخير أنّ التسامح الإسلامي المسيحي هو السبيل الأمثل لاستتباب الأمن بين العالمين ولكلٍّ تعاونٍ جادٍ ومثمر بين الشعوب.

الكلمات المفتاحية: التسامح؛ الإسلام؛ المسيحية؛ الأمير عبد القادر؛ الأسرى؛ الإنسانية.

مقدمة:

التسامح بين المسلمين وغيرهم من غير المسلمين واجب تفرضه الحياة بين بني البشر الذين يتقاسمون في معظمهم اعتناق الديانتين المسيحية والإسلامية، الشيء الذي أوجب التعامل والتعاون فيما بينهم في جو من التسامح البنّاء الذي يسعد البشرية ويزيل عنها حياة الغبن والمعاناة.

من هنا سنتناول في بحثنا موضوع التسامح الإسلامي المسيحي، متخذين من مسيرة الأمير عبد القادر الجزائري أنموذجاً ، سواء في فترة جهاده للغزاة المسيحيين الفرنسيين للجزائر، أو أثناء فترة وجوده في منفاه ببلاد الشام ؛ لنستقي من ذلك العبر التي لطالما أسهمت في التقارب بين العالمين وصححت لديهم الكثير من المفاهيم الخاطئة .

الجذور التاريخية للتسامح الإسلامي المسيحي :

تُجمع الكتابات التاريخية بأكملها بأنّ التسامح الإسلامي المسيحي ليس وليد الساعة بل ضاربٌ بجذوره في أعماق التاريخ الإسلامي منذ بعثة محمد صلى الله عليه وسلم الذي توجّه رفقة زوجته خديجة إلى ورقة بن نوفل يسألانه عمّا حلّ به في غار حراء .

ـ إلى دعوة أصحابه المضطهدين بمكة بالتوجه الى الحبشة التي يحكمها ملك مسيحي لا يظلم عنده أحد .

ـ إلى قوله تعالى : « ... ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون» (المائدة ، 82) .

ـ إلى قوله تعالى:» آلم ✳ غُلبت الروم ✳ في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون✳ في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ✳ بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ✳» (الروم ، 5،4،3،2،1).

ـ وقول الله تعالى في كتابه الكريم: « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدّين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحب المقسطين » (الممتحنة ، 8).

ـ إلى مارية القبطية التي أنجب معها رسول الله ابنه إبراهيم.

ـ إلى الفتوحات الإسلامية حيث يوصي الرّسول الأكرم أصحابه : « ستجدون أناساً يتعبدون في صوامعهم ، فلا تهدموا صومعة، ولا تقتلوا راهباً .. « ؛ وفي عهد الخليفة عمر يتكرّر الأمر ذاته فيكتب الى

عمرو بن العاص قائد الجيش الذي فتح مصر : « لا تقربوا ديراً ولا كنيسة أو كهف راهب ... فإنها لا تُرضي المعبود.»ـ الى تقريب الحكام المسلمين للمسيحيين خاصة الأطباء منهم، فكثيراً ما جمع هؤلاء بوجه خاص ثروات ضخمة، ولقوا تكريماً كبيراً في بيوت العظماء والخلفاء مقابل العناية بمعالجتهم، كما كان المسيحيون يجمعون أموالاً وفيرة من احترافهم الصناعة والتجارة في بلاد المسلمين» (القرضاوي يوسف، 1988: 64).

ـ وفي صداقة هارون الرشيد (أنظر التعليق رقم: 1) للملك الفرنسي شارلمان (أنظر التعليق رقم : 2)، وتبادلهما الهدايا لتعبيرٌ مثاليٌ للحوار والتواصل الإسلامي المسيحي.

ـ إلى الحروب الصليبية وما فعله صلاح الدين الأيوبي(أنظر التعليق رقم : 3)مع المسيحيين حين مكّنه الله منهم، فخيّرهم بين البقاء آمنين على أنفسهم وأموالهم في كنف الدولة الإسلامية أو العودة إلى بلدانهم دون إجبارهم على ذلك، حتى قال عنه ريتشارد « قلب الأسد» : « إنّه أكبر عظيم وأنّه بلا شك أعظم وأقوى قائد في العالم الإسلامي ».

ـ إلى الدولة العثمانية التي حكمت رقعة واسعة من بلاد المسلمين؛ فإنّها مكّنت المسيحيين من الكثير من الامتيازات الدينية في كامل

ربوعها، ومنها بناء الكنائس، والمدارس الخاصة بهم، بل وخضوعهم إلى قضائهم الخاص في الكثير من ولاياتها ؛ ولأدلّ على ذلك ما احتوته المعاهدة التي أبرمت بين فرانسوا الأول ملك فرنسا والسلطان العثماني سليمان القانوني (أنظر التعليق رقم : 4)في عام 1536 من امتيازات(فريد بك المحامي محمد ، 1981 : 224،229) ، كأول دولة أوروبية تَحْصُل على امتيازات من الدولة العثمانية، وتَبِعَها على ذلك عددٌ من الدول الأوروبية الأخرى فيما بعد، كانت أولهم إنجلترا التي حصلت على امتياز تجاري في عام 1580م، ثم تلتها هولندا في عام 1612م، ثم النمسا في عام 1616م، ثم جاءت دول أخرى بعد قرن، أو ما يزيد عنه، كالسويد، وصقلية، والدانمارك، وبروسيا، وإسبانيا.

إنّها روح التسامح لدى المسلمين ـ وهم في أوج قوتهم ـ مع غيرهم من الملل الأخرى ، وفي مقدمتهم؛ المسيحيون . كصورة شاهدة على تزكية قيم التعاون والتواصل النبيلة بين الأمم .

كما نال معظم الأسرى المسيحيين مكانة مرموقة في سلم الوظائف السيّاسية والعسكرية، ولأدلّ على ذلك أوضاعهم بإيالة الجزائر. يقول **وليام شالر** (قنصل أمريكا في الجزائر ما بين 1816ـ 1824)، وهو من الذين عُرفوا بتحاملهم الكبير على السّلطة العثمانية في الجزائر: «والواقع

أنه يوجد عددٌ من المناصب العليا التي كان يشغَلها العبيدُ المسيحيون الذين كسب كثيرٌ منهم ثرواتٍ طائلةٍ من ورائها . والعبيد الموظفون في القصر أو المُلحَقون بالشخصيات الكبيرة في الدولة يعاملون بأقصى اللّطف ... وباختصار فإنّه وُجد من العبيد من يغادر الجزائر وقلبه مُفعمٌ بالأسف والحسرة ، وكثيرٌ من هؤلاء يحملون معهم أموالاً طائلةً عند رحيلهم إلى بلدانهم.» (وليام شالر، 1982: 99ـ 100).

قيم الحوار والتسامح ومجالاته مع المسيحيين لدى الأمير وهو في ميادين القتال :

إنّ روح الحوار والتسامح مع غير المسلمين لدى الأمير عبد القادر لتتجلى بوضوح في شخصيته المتميّزة التي حظيت بالتربية السّوية على يدي والده الشيخ محي الدين الذي مال إليه ميلاً خاصاً، فتعهّد أمر تربيته بنفسه، وأحاطه بعنايته وعطفه ، فساهم بذلك في تكوين إنسان حافظٍ لكتاب الله، دارساً الحديث، وأصول الشريعة.(شارل هنري تشرشل، 1974 : 47). ليصبح مدرساً ومفسراً لآيات القرآن ؛ ويشتهر بين أقرانه بشدة بأسه ، وقوّة بدنه. (شارل هنري تشرشل ، 1974 : 48).

كما ساهمت رحلته رفقة والده الى البقاع المقدسة وبلدان المشرق العربي في اكتسابه المزيد من المعارف والعلوم وسعة الإطلاع، ممّا حذى

به إلى الخلوة والاعتزال حين عودته إلى مسقط رأسه، منكباً على المطالعة لا يفارق كتبه . (شارل هنري تشرشل ، 1974 : 56)،

إنّ هذه العوامل كلّها ساهمت بشكلٍ بارزٍ في تنمية جانب التسامح في شخصية الأمير عبد القادر عبر مختلف مراحل حياته ، وضمن كامل أنشطته وتحركاته ولا سيما موقفه الشهير مع المسيحيين في بلاد الشام .

فلم يخل جهاد الأمير من مواقف الحوار والتسامح والإنسانية التي لازمته مدّة 15 سنة من المواجهات العنيفة ضد الغزاة الفرنسيين؛ وإنّ كراهية الأمير عبد القادر لنصب الكمائن للعدو وإن اضطرته الظروف إليها نادراً، وإقدامه على إطلاق سراح مجموعات الأسرى حين تنعدم لديه إمكانية تأمين غذائهم؛ (كاتب ياسين، 1984: 31)ما يدلّ على نبل إنسانيته وعظمة روحه وتسامحه مع المسيحيين حتى وإن كانوا هم غزاة بلاده .

لقد كانت نظرة الأمير عبد القادر إلى الحرب نظرة تتسم بالفروسية والإنسانية والإباء ؛ فما أن تولى الإمارة حتى فرض إبطال بعض الممارسات والأعمال الوحشية مثل قطع رأس الأسير؛ في الوقت الذي ظلّ الجنود الفرنسيون يمارسون أبشع أعمال التمثيل ويرتكبونها

ضد الشعب الجزائري، وقد أصدر الأمير التعليمات الآتية : «كل عربي يأتي بجندي فرنسي حياً يُكافأ بمبلغ مالي قدره 8 دورو ... وكل عربي يكون في حوزته أحد الجنود الفرنسيين يجب عليه حسن معاملته، والتوجه به في أقرب وقت ممكن إلى الخليفة، أو إلى الأمير ذاته ... وإذا اشتكى الأسير من سوء معاملته يحرم العربي من أي مكافأة، وقد يعاقب بقسوة إذا تطلّب الأمر ذلك ».(شارل هنري تشرشل، 1974 :229).

وما ذلك إلاّ تربية لجيشه على الانضباط وحسن الإتباع، مع الالتزام بأخلاقيات قتالية مستوحاة من قيم روحية وإنسانية فياضة تشبّعت بها شخصية الأمير.

لقد صاغ الأمير بذلك لوائح معاملة الأسرى التي ظلّت مثار إعجاب أعدائه لحكمته وحرصه الزائد على احترام آدمية الإنسان مهما كان انتماؤه العرقي أو الديني.

يثني فاغنر على تفتّح الأمير بالقول "ولم يكن الأمير يحمّل الشعب على التعصب الشديد، وبرهن أكثر من مرة على أنه يريد مسالمة الكفار، فاستضاف من زاره من الرسل الفرنسيين والرحّالين، وأكرمهم وعاملهم بلطف، ولم يكن يرى ما يحول بينه وبين أن يتحدث معهم في كلّ شيء،

حتى في المواضيع الدينية. وكان يتكلم بحيوية، ولكنه لم يكن يحتد أبداً، وحديثه أحياناً في منتهى الروعة، حيث كانت الكلمات الجميلة والأفكار البديعة تنبعث من فمه أخّاذة. (عبد العزيز بوباكير، 2010: 3-12).

ومن شهادات الأسرى الفرنسيين الذين يعترفون بالمعاملات الإنسانية الرّاقية المشبعة بروح التسامح التي وجدوها أثناء أسرهم نذكر ما صرّح به الكابتان **موريزو** أحد القادة الفرنسيين الذين وقعوا في الأسر لدى الأمير فيقول: « وبعد ساعات فتحت عيني ... ولم أكد أصدق ما حصل لي، إذ كنت ما أزال أحتفظ بكتيفياتي، وبوسام الشرف ، لم ينتزع مني أي شيء ، وكنت في مأمن داخل خيمة ، ممدوداً على بساط بين برنسين اثنين كلحاف، وزربية إلى جانبي ، مع جرّة فيها ماء وليمون ... ثم وجدتني أتجه إلى المكان المعين لإقامتي، وقد حظيت فيه باستقبال ... لدى عدو كريم وغير معروف كما ينبغي». (محفوظ قداش، 1983: 60-61).

ولقد ذهبت روح الحوار والتسامح بالأمير إلى أبعد الحدود، فتجده يتسامح دينياً مع من يشن الحرب على شعبه ويغتصب أرض أجداده. ومن ذلك ما ذكره **توستان دي مانوار** أنّ أحد الأساقفة الفرنسيين قصد الأمير للتفاوض معه حول السماح للكنيسة الكاثوليكية بإرسال رجلٍ

من رجال الدين لخدمة الأسرى من الجنود الفرنسيين لدى الأمير، فاستجاب لطلب هذا الأسقف وأضاف قائلاً : « إنني متأكدٌ من أنّ عملي هذا يرضي ربي إذ أتيح لبعض عباده ذكر ربهم واتباع شعائرِ دينهم ، والله يحب العباد الصالحين». (محمود بوعياد، 1983 : 181، 182) .

ولقد اعترف بهذا النبل في أخلاقه وسماحته المقترنان بشدة بأسه وشجاعته كبارُ خصومه من قادة الغزاة ومنهم المارشال **سولت** (كان وزيراً للحرب في سنة 1832). الذي قال في سنة 1840: لا يوجد الآن أحد في العالم، يستحق أن يلقب بالأكبر إلاّ ثلاثة رجال، وكلهم مسلمون. هم : الأمير عبد القادر، ومحمد علي باشا ، والشيخ شامل الدغستاني (أنظر التعليق رقم :5) (صالح خرفي، 1984 ، 80).

كما يبدو طابع التسامح مع المسيحيين بوضوح في شخصية الأمير من خلال مواقفه المتعددة ومن أبرزها مراسلاته المختلفة الى حكام الدول المسيحية وملوكها. ولعلّ من أهمها، وهو في ميادين القتال يقود الجيوش، ويواجه العدو، ويتحدى الصعاب؛ تلك المراسلات التي تُبرز المواصفات التواصلية مع المسيحيين لدى هذا الرجل. وقد اخترنا منها بعض النماذج؛ وفي مقدمتها: مراسلة يخاطب فيها رئيس الوزراء

البريطاني بهذه العبارات : « إنّ الغرض الموجب لهذا الكتاب، أنك ذو رأي سديد ، وعقل متسع مديد ، وأيضاً بلغنا أن كبراء الإنكليز أشفقوا من حالنا ونالوا الكلام في شأننا ، وقالوا : إنّ الفرنصيص ظلم العرب وأضرّ بهم . ولابد أن نتكلموا[نتكلم] في أمرهم .... فلما تأملنا كلامكم هذا ، وجدناه كلام العقلا[العقلاء] المنصفين ، الذين يرضون الصلاح ولا يحبون الفساد ....». الرسالة مؤرخة في 25شوال 1257هـ/ 10ديسمبر 1841م. (عبد الجليل التميمي : 1985، 134 ـ 135).

والمراسلة الثانية يخاطب فيها الملكة الإسبانية بهذه العبارات : « من ملك المسلمين عبد القادر بن محي الدين، إلى جلالة ملكة اسبانيا، وسيدة الأراضي الإسبانية، السلام والفلاح للذي يتابع طريق الحق ورحمة الله وبركاته .... من المُسلّم به لدى جميع الناس، أنّ الإسبان يؤلّفون أمة قوية وقديرة . مشهورة بأعمالها الكبيرة منذ أزمنة بعيدة، بمقدورهم ملاحظة مقاومتنا ضد الفرنسيين، والوضعية التي أنزلونا إليها .... لقد جرت العادة بين الملوك منذ العصور القديمة، أن يصلحوا الخلافات التي تنشب بين إخوانهم، ويمنعوا الحرب بينهم كذلك ...».

الرسالة مؤرخة في 12 جمادي الأولى 1263هـ / 28 أفريل 1847م . (يحي بوعزيز 1985 ، 49)

والمراسلة الثالثة من حاكم مليلية دوبينيطو إلى الأمير عبد القادر جاء فيها: « سيدي عبد القادر : توصلتُ بجوابكم عن الرسالة التي أرسلتُها لكم مع رسالة الحكومة الإسبانية... أعمل كل جهدي من أجل إرضائكم في حدود إمكانياتي ...». الرسالة مؤرخة في 12 جويلية 1847(يحي بوعزيز 1985 ، 72) .

في هذه المراسلات ما يتجلى من خلاله الحوار والتسامح الإسلامي المسيحي والتواصل بين العالمين في أسمى معانيه، والذي لم يقف في طريقه كون غزاة الجزائر مسيحيون ضد شعب مسلم، وذلك في أحلك الظروف وأصعبها. لدى أمير تربى وترعرع على قيم أخلاقية نابعة من بيئة طيبة عريقة ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ الإسلامي الحنيف.

ولعلنا نجد ما يدعم هذا المسار أكثر لدى الأمير وهو يعيش حياة الأسر بفرنسا ما بين 1264 و 1269 هـ/ 1848 و1852 م، تعبيره عن تلك الروح التواصلية مع المسيحيين أثناء زيارته كنيسة المادلين بقوله: « حينما بدأت مقاومتي للفرنسيين كنت أظن أنهم شعب لا دين

له. ولكن تبينتُ غلطتي. وعلى أي حال فإنّ مثل هذه الكنائس ستقنعني بخطئي».(تشرشل، 1974: 297)

موقف الأمير الشهير تجاه فتنة المسيحيين ببلاد الشام:

إنّ من أجلّ وأنبل المواقف المشبّعة بالتسامح الدّيني في حياة الأمير وإن كانت حياته غنية بالمواقف الجليلة؛ هي تلك المتعلقة بفتنة 1276هـ/ 1860م بين المسلمين والمسيحيين في دمشق.

حين علم الأمير عبد القادر بلهيب الفتنة يوشك أن يحرق الديار الشامية أسرع الى حاكم دمشق يستنهضه ويُخطره بضرورة حماية المسيحيين من الهلاك المحتّم على أيدي المسلمين، ولمّا لم تجد محاولاته المتكرّرة التجاوب المرجو، أسرع الى جمع العلماء، والوجهاء، والأعيان من أهالي دمشق وخاطبهم قائلاً : « إنّ الأديان، وفي مقدمتها الدّين الإسلامي، أجلّ وأقدس من أن يكون خنجر جهالة، أو معول طيش، أو صرخات نذالة تَدوي بها أفواه الحُثالة من القوم ... أُحذّركم أن تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيباً، أو يكون له على نُفوسكم سبيلاً ...». ومع تلك التحذيرات التي قام بها الأمير انطلقت شرارة الفتنة بدمشق يوم الاثنين 20 ذي الحجة 1276هـ/ 09 تموز 1860م، وبقيت سبعة أيام متوالية (فؤاد صالح السيد، 1983: 266)، فصمّم الأمير حينها على

اتخاذِ كلِّ ما في طاقته من تدابير لحماية المسيحيين؛ فجمع كل رجاله وأتباعه من المهاجرين الجزائريين ومُحبّيه وخرجوا ليلاً يحملون المشاعل، يطرقون أبواب المسيحيين ويُؤَمنونهم على أنفسهم ، ثم طلبَ منهم الأمير أن يخرجوا معه إلى حيث يقيم ، وأحاطهم برجاله المسلّحين يحرسونهم طيلة أيام الفتنة ، فلمّا علم بمقدم جموع المسلمين العازمين على الفتك بهم، خرج في طريقهم ومَنْ معه صارخاً في وجوههم : « مؤسفٌ جداً ، آهذه هي الصورة التي تُشرّفون بها رسولكم صلى الله عليه وسلم؟ إنّ غَضَبَهُ سيكون عليكم؛ لن أمكّنَكم من أي مسيحي، تراجعوا تراجعوا وإلاّ أعطيتُ لرجالي الأمر بإطلاق النار. « فتفرّقت الجموع بعد أخذٍ و رَدٍ إثر فشلها في إيجاد منفذٍ للوصول الى تحقيق ما كانت تعتزم الإقدام عليه.

وظلّ الأمير مع نحو ألف رجل من أتباعه يحرسون قرابة الخمسة عشر ألف مسيحي أياماً وليالي إلى أن انطفأ لهيب الفتنة. (شرشل، 1974: 312 ، 316).

لقد كان في تدخل الأمير عبد القادر أثناء تواجده ببلاد الشام، لإيقاف الفتنة (فؤاد صالح السيد، 1983: 117) بين المسلمين والمسيحيين؛ ما شهد له به التاريخ، جرّاء موقفه الإنساني التسامحي

الخالد الذي كشف عن شهامته وعمق إيمانه ، حين استطاع أن يحقق عملياً حماية الدماء من الإراقة ، في فضاء تجلّت فيه الروح الإنسانية التسامحية للأمير في أسمى معانيها، فيقوم بإيواء المسيحيين بمنازله ، وهو ذلك الرجل المتعصب لدينه (كاتب ياسين، 1984 : 28). ويعترف له بذلك القاصي والداني، ويمدحه العارفون من أهل الشعر والأدب ، وتُقدّم له الأوسمة والنياشين.(أنظر التعليق رقم : 6). وإنها لوقفة متميّزة أصّل الأمير من خلالها للحوار الإسلامي المسيحي على كل الأصعدة.

وإنّه ليعبّر بنفسه عن تلك السّمة النبيلة التي ملأت حياته كلّها وهو يكاتب الملكة البريطانية بالمناسبة رداً على الهدية التي أرسلتها إليه بتاريخ 20محرم 1278هـ» إنني لم أفعل إلاّ ما توجبه عليّ فرائض الإيمان، ولوازم الإنسانية .» (فؤاد صالح السيد، 1983 : 266-267).

ويعبّر عنها بلسانه وهو يكاتب صديقه الإمام **شميل** قائد ثورة القوقاز ضد الروس في سنة 1860 رداً على رسالته التي شكر له فيها حُسن صنيعه في هذه الحادثة بقوله: « فإنّه وصلني الأعزُ كتابَكم، وسرّني الألذُّ خطابَكم، والذي بلغَكم عنّا ، ورضيتم به منّا من حماية أهل الذّمة

والعهد والذّب عن أنفسهم وأعراضهم بقدر الطّاقة والجهد،هو كما في كريم عِلمِكم مُقتضى أوامر الشّريعة السّنية والمروءة الإنسانية.». (الشيخ بوعمران ، 1983م : 169 ، 173)

وحين كاتبه أسقف الجزائر بافي (Pavy) شاكراً له موقفه هذا تجاه المسيحيين، أجابه بما يلي: «ما فعلناه من خيرٍ للمسيحيين، ما هو إلاّ تطبيق لشرع الإسلام، لأن كل الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله ... وكل الأديان من آدم الى محمد عليهما السلام تعتمد على مبدأين هما ـ تعظيم الله جلّ جلاله والرحمة بمخلوقاته، وما عدا هذا ففرعيات ليست بذات أهمية كبيرة. والشريعة المحمدية هي من بين الشرائع التي تعطي أكبر أهمية للاحترام والرحمة والرأفة وكل ما يعزز التآلف ونبذ التخالف».

كيف لا تكون هذه مواقفه وهو القائل: « لو أصغى إليَّ المسلمون والنصارى، لرفعت الخلاف بينهم. ولصاروا إخواناً ، ظاهراً وباطناً. ولكن لا يصغون إلي ». (فؤاد صالح السيد، 1983 : 77-78)

لقد كانت مواقف الأمير تلك نابعةً من قناعاته الإيمانية التي تدعوه إلى التواصل والتسامح مع من يخالف عقيدته . تطبيقاً لقوله تعالى: « لا

ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدّين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحب المقسطين « صدق الله العظيم .

ولا يسعنا بعد تقديمنا لهذه النماذج المستوحاة من سيرة الأمير عبد القادر الذي فهم بعمق تعاليم الإسلام النبيلة الزكية، إلاّ أن نختم حديثنا عنه بهذه الأبيات التي يبوح من خلالها بما يختلج في جنباته من عمق تسامحه الديني مع أهل الكتاب فيقول:

فَطَوْراً تراني مسلماً أيّ مسلم زهوداً نسوكاً خاضعاً طالباً مداً

وطوراً تراني للكنائس مسرعاً وفي وسطي الزنارُ أحكمه شداً

وطَوراً بمدارس اليهود مدرِّساً أُقررُ توراةً وأُبـدي لهم رشداً

(فؤاد صالح السيد ، 1985 : 118).

فلم يكن الأمير يوماً مسرعاً الى الكنائس، ولم يكن يوماً مدرساً بمدارس اليهود، ولكنها النظرة الرحيمة لغير المسلمين، فلم يكن يرى رحمة الله منحصرة في أبناء عقيدته فقط، بل يمكن أن تشمل غيرهم من بني البشر، متمعناً بعمق بنظرة الناسك المتصوّف في قوله تعالى:» إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون». (البقرة : 62).

ولا يمكننا في الأخير أن نغادر الأمير دون أن نسوق له أبياتاً من شعره وهو يعرّفنا من خلالها أكثر بمحامد سيرته، من روحٍ أبيّةٍ كريمةٍ تأبى الخنوعَ ، وإقدامٍ يأبى التوليٍّ والرجوعَ ، وبطولاتٍ عمّت الآفاق، وطموح بلغ عنان السماء، ومواقف بقيت خالدةً خلود الأمير في الأذهان .

لنا في كل مكرمة مجـال ومن فوق السِّماك لنا رجال

ركبنا للمكارم كل هـول وخضنا أبحراً ولها زجـال

إذا عنها توانى الغيرعجزاً فنحن الرّاحلون لها ، العجال

ورَّثنا سؤدداً للعُرب يبقى وما تبقى السّماء ولا الجبال

(ممدوح حقي ، 1965: 25.)

بالفعل لقد تجسّدت في شخص الأمير مواصفات قلّما نجدها في غيره؛ تجمع بين الإنسان المتسامح الرحيم ، والمثقف المتأمل، والزاهد العابد، والفارس المجاهد، والدبلوماسي البارع، والأمير الأسير الكسير، والباحث عن الحرية والعدالة من خلال القيم والمبادئ النبيلة التي تربى عليها منذ الصغر.

نستلهم من هذه الأخلاق القِيَم النبيلة التي يدعو إليها ديننا الحنيف، وفي مقدمتها التسامح الديني مع غير المسلمين الذي يبقى ضرورة حتمية، ويظل على مرّ العصور الأمل الذي يحدو البشرية ، إذ بدونه لا يمكن التعايش بين الشعوب ، فهو السبيل إلى الأمن والاستقرار، الذي ينبغي أن تساهم في تجسيده على الواقع كل المؤسسات والجمعيات الدينية والتعليمية، وكل طاقات المجتمعات الإسلامية من مفكرين وأدباء ودعاة وأئمة، ليعُم الأمن والاستقرار والتعاون بين سكان كوكبنا بمختلف عقائدهم ومذاهبهم وطوائفهم وألوانهم ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلّم « كلكم لآدم وآدم من تراب».

التعليق رقم 1 : هو الخليفة العباسي الخامس ولد حوالي *763*م ، وتوفي سنة *809*م ، حكم الخلافة العباسية مابين *786*و*809*م .

[1]**لتعليق رقم 2** : ولد ملك الفرنجة سنة *742* م وتوفي سنة *814* م ، تولى العرش ما بين *768*و*800* م ، وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ما بين *800* و *814* م .

التعليق رقم 3 :هو مؤسس الدولة الأيوبية في الشام ومصر وشمال العراق والحجاز ، ومحرّر بيت المقدس من الصليبيين سنة *1187*م. ولد في تكريت بالعراق عام *1138* م ، وتوفي بدمشق سنة *1193*م ،

التعليق رقم 4 :وُلِد سليمان القانونيّ في عام 900 ه / 1495م ، وهو الابن الوحيد للسُّلطان سليم الأوّل الذي اهتمّ بتنشئته، وتربيته منذ الصِّغَر؛ فأصبح سليمان مُحبّاً للعِلم، والعلماء، والأدب، والأدباء، والفقهاء، علماً بأنّه كان يشتهرُ بالوقار، والجدّية في شبابه .

تولّى سليمان القانوني الحُكم بعد وفاة والده السُّلطان سليم الأوّل عام926ه/ 1520م، تُعتبَر فترة حكمه عهداً ذهبيّاً للدولة الإسلاميّة؛ عُرِف بحبّه وتذوُّقه للشعر، ومعرفته بلغات الشرق، كاللغة العربيّة، كما أنّه كان مُحِبّاً للبناء والإعمار؛ وهذا ما جعله يُنفق بسخاء على الأبنية الكبيرة، فبنى الحصون، والمعاقل في بلغراد، ورودس، وكذلك بودا، وأنشأ الصهاريج، والقناطر، والمساجد في مختلف أنحاء دولته، وخصوصاً بغداد، ودمشق، ومكّة المُكرّمة، بالإضافة إلى ما شيّده من عمائر رائعة في عاصمة دولته، ومن أهمّ مَعالِم التطوُّر الحضاريّ في عَهده : بناء مسجد السليمانيّة (مسجد سليمان القانونيّ) في إسطنبول، الذي يُعتبَر من أبرز الأعمال المعماريّة التاريخيّة في العالَم الإسلاميّ، وترميم المسجد

الأقصى، وقبّة الصخرة، والحَرَم المكّي، بالإضافة إلى ترميمه للمسجد النبويّ، وإنشاء الحمّامات العامّة، والملاجئ للحُجّاج، وتحصينه للمدينة المُنوّرة من خلال بناء سورٍ حولها.

اشتدّ مرضه حين بلغ الرابعة والسبعين من عمره، وأصبح غير قادر على ركوب الخيل، إلّا أنّ هذا لم يمنعه من مواصلة الجهاد؛ فقد كان مرضه شديداً، إلّا أنّه قال: «أُحبُّ أن أموت غازياً في سبيل الله»، وهذا ما كان له؛ حيث استطاع الوصول إلى مدينة سيكتوار المجريّة غازياً لها، ومُظهِراً قوّته المعهودة أمام أعدائه، ومن الجدير بالذكر أنّه تُوفِّي في أثناء غزوة لها في عام 1566م.

التعليق رقم 5 :الإمام شميل (*1799* ـ *1871*) ولد في أو شامل بدغستان في المنطقة الشرقية من القفقاز، وقد انتشر الإسلام فيها منذ القرن *2* هـ / *8* م، وكانت المنطقة جزء من الفرس الى أن احتلتها روسيا روسيا القيصرية في بداية القرن *19*م، ولم يرضى السكان بهذا الاحتلال فثاروا مطالبين باستقلالهم ، وكان من أبرز قادتهم الإمام شميل لمة *25* سنة ، غير أنّ تفوق الجيش الوسي لم يسمح له بمواصلة الجهاد رغم كل ما بذل من صبر وشجاعة ، فقرر وقف الحرب ونقل على إثرها الى المنفى بمدينة «كالوغا» قريباً من موسكو وذلك في يوم *6*سبتمبر *1859* .

توسط له الأمير لإطلاق سراحه من خلال نابليون الثالث ، ومن خلال سفير روسيا في الدولة العثمانية الى أن انتهى به المطاف الى المدينة المنورة فتوفي ودفن بها .

التعليق رقم 6 : منحته الدولة العثمانية الوسام المجيدي من الرتبة الأولى ، وفرنسا وسام جوقة الشرف من الطبقة الأولى، وروسيا وسام صليب النسر الأبيض ، وبروسيا صليب النسر الأسود ، واليونان صليب المخلص، وانجلترا بندقية مرصعة بالذهب .

المراجع:

1 ـ سورة البقرة ، الآية 62 .

2 ـ سورة المائدة ، الآية 82 .

3 ـ سورة الروم ، الآيات : 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5.

4 ـ سورة الممتحنة ، الآية 8.

5 ـ بو عمران الشيخ ،(1983) مراسلة الأمير عبد القادر مع الإمام شميل من القفقاز، مجلة الثقافة ، عدد 75 ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

6 ـ عبد العزيز بوباكير :الأمير بعيون فاغنر ، جريدة الخبر يوم 03-12-2010 .

7 ـ عبد الجليل التميمي (1985) بحوث ووثائق في التاريخ المغربي الجزائر وتونس وليبيا 1816ـ1817 ، الطبعة الثانية، زغوان، تونس ، منشورات مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني .

8 ـ فريد بك المحامي، (1981)،تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق : إحسان حقي ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، دار النفائس.

9 ـ فؤاد صالح السيد، (1983)، الأمير عبد القادر في دمشق، جوانب من حياته الدينية والعلمية والفكرية (1272 ـ 1300 هـ/ 1856 ـ 1883م) ، مجلة الثقافة ، عدد 75 ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .

10 ـ فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفاً وشاعراً ، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب .

11 ـ **شارل هنري تشرشل،** (1974) ، حياة عبد القادر تقديم وترجمة دي ميشال هابرت، ط2 ، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

12 ـ صالح خرفي ،(1984) ، في ذكرى الأمير ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب .

13 ـ كاتب ياسين ، (1984) ، الأمير عبد القادر واستقلال الجزائر ، ترجمة محمد هناد، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب .

14 ـ ممدوح حقي ، (1965)، ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، الطبعة الثانية، بيروت ، لبنان، دار اليقضة العربية للتأليف والترجمة والنشر.

15. محفوظ قداش، (1983) جيش الأمير عبد القادر، تنظيمه وأهميته، ترجمة حسن بن مهيدي، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

16محمود بوعياد، (1983)، عبد القادر الإنسان ، مجلة الثقافة، العدد 75، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .

17 ـ **وليام شالر**، (1982) ، مذكرات ، تعريب وتعليق وتقديم : اسماعيل العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .

18 ـ يوسف القرضاوي، (1988) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، الدار البيضاء، دار المعرفة.

19 ـ يحي بوعزيز ـ ميكيل دوايبالزا، (1985)، مراسلات الأمير عبد القادر مع اسبانيا وحكامها العسكريين بمليلية، الطبعة الثانية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.